صفحة من كتاب

نيتشـــــه والزواج

[صفحة مهداة إلى الآنسة المهذبة « ا . م . »]

الأســـتاذ زكريا إبراهيم

فى ظلال الوحدة القاسية ، ومن خلال الحياة العقلية الباردة ، أرسل نيتشه صيحته العالية : « إن ما تسمونه الحب ، ليس إلا سلسلة من الحماقات القصيرة المتتالية . أما الزواج فهو الحماقة المستقرة الكبرى التى تجىء خاتمةً لتلك الحماقات » ! وليس من عجب أن يعلن نيتشه مثل هذا الحكم على لسان نبيِّه زرادشت ؛ فإن فيلسوفنا قد جهل المرأة ، ففاتته بذلك معرفة جانب كبير من جوانب الحياة الإنسانية . وقد شهدت بذلك أخته فقالت : « إننى لم أشهد لديه أدنى أثر من آثار عاطفة المحبة . فكل اهتمامه كان منصرفاً إلى المسائل العقلية ، وأما ما عدا ذلك فلم يكن يلقى منه غير اهتمام سطحى . ويظهر أنه هو نفسه قد عانى كثيراً فيما بعد ، بسبب انعدام كل عاطفة من عواطف الحب لديه » . وإذا كان نيتشه قد جهل ذلك العلم الكبير الذى سماه سقراط باسم « الحب » ؛ فليس بدعاً أن تجىء أحكامه التى أطلقها على المرأة ، أحكاماً قاسية لا تثبُت فيها ولا هوادة . وهو نفسه قد فطن إلى أن جهله بالمرأة لا بد أن ينحرف به عن جادة الصواب ؛ فذكر على لسان تلك المرأة العجوز التى التقى بها حكيمه زرادشت : « إن من الغريب أن ينطق زرادشت بالحق فى حديثه عن النساء ، مع أنه لا يعرف عنهن إلا الشىء القليل ! »

ولكن ما هو هذا الحق الذى نطق به زرادشت فى حديثه عن المرأة ؟ ألا فلنستمع إليه وهو يفضى إلى تلك المرأة العجوز بسر « المرأة » الذى كشفت له عنه الحياة ! : « كل ما فى المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز من حل إلا الولادة ... ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة ، أما الغاية فهى دائماً : الولد . . . يجب أن يُنشَّأ الرجل للحرب والقتال ، أما المرأة فيجب تُعدّ للترويح عن المحاربين ، وكل ما عدا ذلك فهو حمق وضلال » . أما المساواة بين الرجل والمرأة فهى حديث خرافة ، لأن الجنسين مختلفان ، ووظيفة كل منهما مختلفة كذلك عن وظيفة الآخر . ويصف نيتشه هذه المساواة بأنها مساواة مضادّة للطبيعة Antiphysis ، لأن من المحال أن تنقلب المرأة رجلاً ، مهما أجهد الخياليون utopistes أنفسهم فى توطيد أسباب ذلك الانقلاب . ومهمة الرجل فى نظر نيتشه هى أن يقوم بجلائل الأعمال ، ومختلف ضروب الحرب والقتال ؛ أما المرأة فإنه ليس ثمة لديها شىء سوى الحب والطفل . وتبعاً لذلك فإن سعادة الرجل هى : «أنا أريد» ، وأما سعادة المرأة فهى : « هو يريد »

وقد حَمَلَ نيتشه على « الزواج الحديث » — كدأبه فى الحَمْل على كل ما هو مُحدَث — ، وأخذ عليه أنه زواج يقوم على العواطف الصاخبة التى لا تدوم ، والأهواء الجامحة التى لا تستقر . فالزواج لا يمكن أن يقوم على الحب ، لأن الحب يعصف برجاحة الحكم ؛ وإنما الواجب أن يقوم على أساس من التدبر والحكمة . وإذا كان نظام الزواج ، فى المجتمع الأوربى الحديث ، قد أخذ يزحف على ساقين ؛ فما ذلك إلا لأن زواج الحب قد أصبح يُنظر إليه اليوم نظرة ملؤها التسامح والتساهل . أما الزواج الكامل الذى تتحقق فيه حكمة هذا النظام على أحسن وجه ، فهو ذلك الذى تكون فيه الرابطة بين الزوجين ، رابطة قوية لا تنفصم عُراها ، بحيث لا يمكن أن تعصف بها الأهواء العابرة والنزوات العارضة . ومثل هذا الزواج لا يمكن أن يكون الأصل فيه هو الحب ، بل « غريزة النوع » أو « غريزة الامتلاك » (باعتبار أن الزوجة والأبناء بمثابة ممتلكات للزوج) ، أو «غريزة السيطرة» . ويؤكد نيتشه قيمة غريزة السيطرة فى الزواج ؛ فيقول إن الأسرة أشبه ما تكون بمملكة صغيرة تحتاج إلى أبناء وورثة لكي يدوم بقاؤها ، ففى مجال الأسرة يستطيع الرجل أن « يباشر » إرادة القوة التى توجد لديه !

بيد أن نيتشه سرعان ما يعدل عن هذه النظرة ، لكى يقدّم لنا عن الزواج صورة أخرى محببة جميلة ، يُدخل فيها فكرته عن الإنسان الأعلى ؛ فيقول : « أنت شاب فى مقتبل العمر ، وتتمنى أن تكون لك زوجة وأولاد ، ولكننى أسائلك : هل أنت رجل يحق له أن يطمع فى البنين ؟ هل أنت الرجل